شرح كتاب (الرد على الجهمية) لعثمان بن سعيد الدارمي -رحمه الله.

شرح فضيلة الشيخ

أ.د. أحمد بن عبدالرحمن القاضي

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس (١٤)

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

ثم أنَّه قال: [باب نزول الله لأهل الجنة.

حدَّثنا هشام بن خالد الدمشقي، وكان ثقةً، (قال): حدَّثنا محمد بن شعيب وهو ابن شابور، قال: أنبأنا عمر بن عبد الله، مولى غفرة قال: سمعت أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {أتاني جبريل وفي يده كهيئة المرآة البيضاء، وفيها نكتة سوداء، قلت: ما هذه يا جبريل؟ قال: هذه الجمعة، بعث بها إليك ربك، تكون عيداً لك ولأمتك من بعدك، قلت: وما لنا فيها؟ قال: لكم فيها خير كثير، أنتم الآخرون السابقون يوم القيامة، وفيها ساعة لا يوافقها عبد يصلي يسأل الله شيئاً إلا أعطاه، قلت: ما هذه النكتة السوداء؟ قال: هذه الساعة، تكون يوم الجمعة، وهو سيد الأيام، ونحن نسميه عندنا يوم المزيد، قلت: وما المزيد يا جبريل؟ قال: ذلك بأنَّ ربك اتخذ في الجنة وادياً أفيح من مسك أبيض، فإذا كان يوم الجمعة من أيام الآخرة هبط الرب تبارك وتعالى عن عرشه إلى كرسيه، وحُفَّ الكرسي بمنابر من نور، فيجلس عليها النبيون، وحُفَّ المنابر بكراسي من ذهب، فيجلس عليها الصديقون والشهداء، ويهبط أهل الغرف من غرفهم، فيجلسون على كثبان المسك، لا يرون لأهل المنابر والكراسي عليهم فضلاً في المجلس، ثم يتبدى لهم ذو الجلال والإكرام، فيقول: سلوني فيقولون بأجمعهم: نسألك الرضا، فيشهدهم على الرضا، ثم يسألونه، حتى تنتهي نهمة كلّ عبد منهم، ثم يُسعى عليهم بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ثم يرتفع الرب عن كرسيه إلى عرشه، ويرتفع أهل الغرف إلى غرفهم، وهي غرفة من لؤلؤة بيضاء، أو زبرجدة خضراء، أو ياقوتة حمراء، ليس فيها قصم، ولا وصم، مطردة فيها أنهارها، متدلية

فيها ثمارها، فيها أزواجها وخدمها ومساكنها، فليس أهل الجنة إلى شيء أشوق منهم إلى يوم الجمعة ليزدادوا قرباً من الله ورضواناً}].

الله أكبر، على كلِّ حال هذا الحديث وإن كان يرسم صورة يتمناها المؤمن، فما عند الله عز وجل أعظم مما جاء، لكن هذا الحديث ضعَّفه المحقق، ونقل تضعيفه عن عدد، ذكر تضعيفه عن ابن أبي حاتم، وضعَّفه بعمر مولى غفرة، قال: لم يلق أنساً، وأشار أيضاً إلى أنَّه ضعيف هو أيضاً الذي هو غفرة مع عدم لقيِّه لأنس.

.....

من قال ذلك؟

.....

يقول: صحيح لغيره؟

.....

هذا من الأحاديث التي ذكرها ابن القيم رحمه الله في "زاد المعاد"، والحديث.

.....

لكن هل قال ابن القيم فيه شيء؟

.....

ابن القيم ضمَّن ميميته بعض هذه المعاني، في ميميته المشهورة ضمَّن فيها بعض هذه المعاني، فلعله كان يحتمله.
يوسف؟

.....

بتشديد الدال، ذكرها قراءة ثابتة يعني.

.....

الجمهور بتخفيف الدال ((التَّنَادِ))، و(التنادّ) بالتشديد نسبها إلى قارئ؟

.....

فقط، ولم يذكر لها توجيهاً؟

.....

يعني: يوافق التشديد. أحسنت.

ثم قال: [حدَّثنا عثمان بن أبي شيبة، (قال): حدَّثنا جرير، عن ليث، عن عثمان بن أبي حميد، عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: {أتاني جبريل في كفه كالمرآة البيضاء، فيها كالنكتة السوداء، فقلت: ما هذا الذي في يدك؟ قال: الجمعة، قلت: وما الجمعة؟ قال: لكم فيها خير، وهو عندنا سيد الأيام، ونحن نسميه يوم القيامة المزيد، قلت: ولم ذاك؟ قال: لأنَّ الرب تبارك وتعالى اتخذ في الجنة وادياً أفيح من مسك أبيض، فإذا كان يوم الجمعة ينزل على كرسيه من عليين، أو نزل من عليين على كرسيه، ثم حُفَّ الكرسي بمنابر من ذهب مكللة بالجواهر، ثم يجيء النبيون حتى يجلسوا على تلك المنابر، ثم ينزل أهل الغرف حتى يجلسوا على ذلك الكثيب، ثم يتجلى لهم ربهم فيقول: أنا الذي صدقتكم وعدي، وأتممت عليكم نعمتي، وهذا محل كرامتي، فسلوني}، وساق عثمان بن أبي شيبة الحديث إلى قوله: {وذلك مقدار منصرفهم من الجمعة، ثم يرتفع إلى عرشه عن كرسيه، ويرتفع معه النبيون والصديقون والشهداء، أو النبيون والشهداء والصديقون، ويرجع أهل الغرف إلى غرفهم}].

هذا معناه كالذي قبله، وذكر المحقق قال: هذا حديث ضعيف جداً.

[حدَّثنا عبد الله بن صالح المصري، (قال): حدَّثني حرملة بن عمران، عن سليمان بن حميد، قال: سمعت محمد بن كعب القرظي يحدِّث عن عمر بن عبد العزيز، قال: فإذا فرغ الله عز وجل من أهل الجنة والنار، أقبل الله عز وجل ((فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ))[البقرة:٢١٠]. فسلم على أهل الجنة في أول درجة، فيردون عليه السلام. قال القرظي: وهذا في القرآن ((سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ))[يس:٥٨]. فيقول: سلوني قال: ففعل ذلك بهم في درجهم حتى يستوي في مجلسه، ثم يأتيهم التحف من الله تحملها الملائكة إليهم].

هذا أيضاً ضعيف، ومنتهاه إلى عمر بن عبد العزيز.

[قال أبو سعيد: فهذه الأحاديث قد جاءت كلها وأكثر منها في نزول الرب تبارك وتعالى في هذه المواطن، وعلى تصديقها والإيمان بها أدركنا أهل الفقه والبصر من مشايخنا، لا ينكرها منهم أحد ولا يمتنع من روايتها، حتى ظهرت هذه العصابة فعارضت آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم بردٍّ، وتشمروا لدفعها بجد].

وردّهم لها ليس من باب الصنعة الحديثية كما مثلاً يفعل المحققون عندما يضعّفون سنداً، وإنَّما ردّهم لها ردٌّ من أصل المعنى، إذ أنَّ القوم ينفون عن الله عز وجل الصفات الفعلية، ويرون أنَّ إثبات الصفة الفعلية يترتب عليه ما يمتنع عقلاً، إذاً أنَّ عندهم شبهة مستحكمة وهي أنَّ الله تعالى ليس محلاً للحوادث. وهذه الجملة في ظاهرها حسنة، أنَّ الله سبحانه وتعالى منزّه عن أن يكون محلاً للحوادث، لكنهم يقصدون بذلك معنى باطلاً،

يريدون بذلك أنَّه لا يفعل ما يشاء كيف شاء، متى شاء، فحينما يعبِّرون بهذا التعبير وهو تتريه الله عن حلول الحوادث، لا يقصدون به أنَّ الله سبحانه وتعالى لا يحدث له شيء بعد أن لم يكن، وإنَّما يقصدون بذلك إنكار ما أخبر الله تعالى به عن نفسه، أو أخبر عنه نبيه صلى الله عليه وسلم من الأفعال، وشبهتهم كالتالي: يقولون: هذا الفعل الذي تثبتونه لله تعالى لابدَّ أن يكون وصف كمال، لأنَّه لا يضاف الشيء إلى الله إلا أن يكون صفة كمال، فيقول مخاطبهم: نعم، فيقال: طيب هو قبل أن يتصف به، هل كان متصفاً بالكمال أم لا؟ فيقول مخاطبهم: نعم كان متصفاً بالكمال، فيقولون: إذاً قد حصل له كمال بعد ذلك مما يدلُّ على أنَّه قبل حصول هذا وصف الكمال كان أنقص منه قبل ذلك، فهذا يقتضي أن يكون أنقص منه بعد حصوله. هكذا يصورون المسألة، والحقيقة أنَّ المخرج من هذا الإيراد أن يقال: إنَّ الله سبحانه وتعالى لم يزل ولا يزال فعَّالاً، ففي صفاته الملازمة لذاته أنَّه فعَّال، ولكن هذا الفعل تارة يكون نزولاً، وتارة يكون استواءً، وتارة يكون ضحكاً، وتارة يكون عجباً، فلا يقال: إنَّه طرأ عليه شيء بعد أن لم يكن، وإنَّما تتجدد صور الأفعال حسب ما تقتضيه حكمته ومشيئته، وهذا أبلغ في الكمال من زعمكم أنَّه على صفة لا يتمكن معها من فعل ما يشاء، فمقتضى قولهم، ومقتضى إلزاماهم أن يكون الرب الذي يعبدونه لا يتمكن من الفعل، وأنَّه باق على صور جامدة. تعالى الله عن ذلك، فلا يفعل، ولا يتكلم كلاماً حقيقياً متعلقاً بمشيئته، ولا يترل، ولا يستوي، ولا يجيء، وسائر كل ما أثبته لنفسه منفي عندهم، فهذا لا ريب أنَّه يدل على نقص في الإله الذي تصوروه، ونسبوا إليه هذا المعنى، وفي مقابل ذلك ما يعتقده أهل السنة، يعتقدون أنَّ الله سبحانه وتعالى متصفٌ بصفات الكمال، ومن صفاته ذاتية النوع أنَّه فعَّال، ولكن آحادها وأفرادها تحدث بحسب مشيئته، ولا أدلَّ على ذلك من إثبات صفة الكلام لله عز وجل، فإننا نثبت لله تعالى صفة الكلام، وكلامه سبحانه وتعالى قديم النوع حادث الآحاد، وخلقه سبحانه للأشياء يكون بكلامه، ولهذا قال الله تعالى في صريح القرآن: ((مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ))، [الأنبياء:٢]، هكذا عبَّر بهذا التعبير، فليس في ردِّ هؤلاء لهذه الأحاديث ردٌّ من حيث الصنعة الحديثية، وإنَّما هو ردٌّ لها من أصلها، فلا يثبتون لله وصفاً فعلياً أبداً.

[فقالوا: كيف نزوله هذا؟ قلنا: لم نُكلَّف كيفية نزوله في ديننا، ولا تعقله قلوبنا، وليس كمثله شيء من خلقه فنشبّه منه فعلاً أو صفةً بفعالهم وصفتهم، ولكن يترل بقدرته ولطف ربوبيته كيف يشاء، فالكيف منه غير معقول، والإيمان بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في نزوله واجب، ولا يسأل الرب عما يفعل كيف يفعل وهم يسألون، لأنَّه القادر على ما يشاء أن يفعله كيف يشاء، وإنَّما يقال لفعل المخلوق الضعيف الذي لا قدرة له إلا ما أقدره الله تعالى عليه: كيف يصنع؟ وكيف قدر؟.

ولو قد آمنتم باستواء الرب على عرشه، وارتفاعه فوق السماء السابعة بدءاً إذ خلقها، كإيمان المصلين به، لقلنا لكم: ليس نزوله من سماء إلى سماء بأشد عليه، ولا بأعجب من استوائه عليها إذ خلقها بدءاً، فكما قدر على الأولى منهما كيف شاء ، فكذلك يقدر على الأخرى كيف يشاء.

وليس قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في نزوله بأعجب من قول الله تبارك وتعالى: ((هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ))، [البقرة:٢١٠]، ومن قوله: ((وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا))، [الفجر:٢٢]، فكما يقدر على هذا يقدر على ذاك.

فهذا الناطق من قول الله عز وجل، وذاك المحفوظ من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم بأخبار ليس عليها غبار، فإن كنتم من عباد الله المؤمنين، لزمكم الإيمان بها، كما آمن بها المؤمنون، وإلا فصرِّحوا بما تضمرون، ودعوا هذه الأغلوطات التي تلوون بها ألسنتكم، فلئن كان أهل الجهل في شك من أمركم، إن أهل العلم من أمركم لعلى يقين].

أشار الدارمي رحمه الله إلى مسلك يفعله هؤلاء المنكرون من الجهمية في ردِّ ما أثبت الله لنفسه، أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم بالسؤال عن الكيفية، فكأنَّهم يرون أنَّهم إذا سألوا أهل السنة الذين يثبتون لله ما أثبت لنفسه عن الكيفية، أنَّهم بذلك يحرجونهم، أو يلزمونهم بشيء، لكن ليس في ذلك أدنى إلزام ولا حرج، فإنَّهم إذا سألونا عن الكيفية، قلنا: لا نعقل الكيفية، فنحن نثبت المعنى، ولا يلزم من إثباتنا للمعنى أن نثبت الكيفية، وهذا أمر مدرك في حياة الناس، كثيراً ما يثبت الإنسان المعنى ويقرُّ به، مع أنَّه لا يدرك الكيفية، أرأيتم هذه الأجهزة التي بأيدينا، هذه الأجهزة التي بأيدينا نحن نتعقل ونفهم أنَّها تحفظ، وتنقل، وتتصل، وتقوم بجملة من الأعمال، نثبت هذه المعاني فيها، ونتعقلها، مع أنَّ آحاد الناس لا يملكون أن يكيِّفوا ذلك، لأنَّهم لا يحيطون بتفاصيلها الالكترونية، فليس من لازم إثبات المعنى أنَّه لابدَّ أن تُثبت الكيفية، فنحن نقول: ما أخبر الله تعالى به عن نفسه من نزوله واستوائه متعقَل في لغة العرب، كما قال الإمام مالك: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. بل إنَّ السلف اتخذوا من جواب الإمام مالك أنموذجاً يسيرون عليه، وقد مرَّ في بعض الحواشي عن أبي جعفر الترمذي أنَّه قال: النزول معقول، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. بسند صحيح، فسحب هذه الكلمات الأربع التي قالها الإمام مالك على كل من سأل عن كيفية، وأيضاً من أجوبة السلف لمن سألهم عن كيفية صفات الله عز وجل أن يقولوا للسائل: كيف هو؟ فإذا قال: لا تُعقل لذاته كيفية، فيقال له: أيضاً لا تُعقل لصفاته كيفية، فإذا كنت تثبت ذاتاً لا تشبه الذوات فلتثبت صفاتاً لا تشبه الصفات، إذا كنت تثبت

ذاتاً دون أن تتعقل تلك الذات، ولا تكيفها، فإنَّ الصفات تابعة للذات، فالقول في الصفات كالقول في الذات، سواء بسواء، فهذا ليس بلازم لأهل السنة يلزمهم من إثبات المعنى أن يثبتوا الكيفية، بل الكيفية لا يمكن الإحاطة بها.

ثم إنَّ الشيخ لفت الانتباه إلى أنَّ هؤلاء يستشنعون ألفاظاً ترد في الأحاديث النبوية وفي الآيات القرآنية ما هو أبلغ منها وأعظم، لكن الإلف والعادة جعلت مثل الآيات القرآنية لا تنبوا على أسماعهم لكثرة ورودها وطرقها للأسماع، ولكنهم يستشنعون ألفاظاً في الأحاديث النبوية فيردون الأحاديث النبوية بها، وإلا فإثبات الإتيان والمجيء والاستواء كلٌّ ذلك في القرآن العظيم، فما قد يردّونه في أحاديث صحاح من إثبات صفات فعلية لله عز وجل إنَّما هو ناشئ عن استشناعهم لهذه الألفاظ، وإلا لو أجروا قانوناً واحداً وساروا عليه مطرداً من قبول ما ثبت وصح، مع اعتقاد التنزيه لخرجوا من طائلة هذه الشبهات.

ثم قال: [قال: فقال قائل منهم: معنى إتيانه في ظلل من الغمام، ومجيئه والملك صفاً صفاً، كمعنى كذا وكذا. قلت: هذا التكذيب بالآية صراحاً].

يعني: يشير إلى التأويل المذموم، يعني: معنى إتيانه في ظلل من الغمام، يعني مثلاً: إتيان ملائكته، أو إتيان أمره، والملك صفاً صفاً كذلك، ((وَجَاءَ رَبُّكَ))، [الفجر:٢٢]، مراده ومجيئه والملك صفاً صفاً، أنَّ المقصود مجيء ملائكته، أو مجيء أمره، إلى آخره.

[قلت: هذا التكذيب بالآية صراحاً، تلك معناها بيِّن للأمة، لا اختلاف بيننا وبينكم وبين المسلمين في معناها المفهوم المعقول عند جميع المسلمين، فأما مجيئه يوم القيامة، وإتيانه في ظلل من الغمام والملائكة، فلا اختلاف بين الأمة أنَّه إنَّما يأتيهم يومئذ كذلك لمحاسبتهم، وليصدع بين خلقه ويقررهم بأعمالهم، ويجزيهم بها، ولينصف المظلوم من الظالم، لا يتولى ذلك أحد غيره تبارك اسمه وتعالى جده، فمن لم يؤمن بذلك لم يؤمن بيوم الحساب.

ولكن إن كنتم محقين في تأويلكم هذا وما ادعيتم من باطلكم، ولستم كذلك، فأتوا بحديث يقوي مذهبكم فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو بتفسير تأثرونه صحيحاً عن أحد من الصحابة أو التابعين كما أتيناكم به عنهم نحن لمذهبنا، وإلا فمتى نزلت الجهمية من العلم بكتاب الله وبتفسيره المنزلة الذي يجب على الناس قبول قولهم فيه، وترك ما يؤثر من خلافهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعن أصحابه، وعن التابعين بعدهم].

هو أشار إلى معنى مهم وهو أنَّكم إن كنتم محقين في تأويلكم وما ادعيتم فهاتوا حديثاً أثراً عن صاحب أو تابع يؤيد مقالتكم، لكن متى كان للجهمية في هذا بضاعة؟ لا شيء عندهم، ما عندهم إلا المقالات التي يفوهون بها بغير أثارة من علم، أما أهل السنة فقد أسسوا مقالتهم على ناطق الكتاب وصحيح السنة، فهذا من الفروق الواضحة بين طريق السلف وطريق غيرهم أنَّ السلف يبنون على آثار النبوة، وعلى فهم الصحابة والتابعين، وأما غيرهم فليس عندهم إلا المقدمات العقلية التي أوردتهم هذه المهالك.

[هذا حدث كبير في الإسلام، وظلم عظيم أن يتبع تفسيركم كتاب الله بلا أثر، ويترك المأثور فيه الصحيح من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين لهم بإحسان رضي الله عنهم].

ماذا لو شهد المصنف رحمه الله ما يجري في هذه الأزمان من التطاول على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، كتب أحدهم قبل بضعة أيام مقالة يقول فيها: لا يمكن أن يصح حديث {رأيتكنَّ أكثر أهل النار}. وكيف يردُّ هذا الحديث هذا السفيه المتقوِّل؟ يقول: لا يمكن أن تكون عيدية أبي القاسم صلى الله عليه وسلم للنساء يوم العيد هذه العيدية هذه الهدية. بهذه الصفاقة يُسقط حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: لا يمكن النبي صلى الله عليه وسلم يتقدم للنساء يقول: {رأيتكنَّ أكثر أهل النار}، فقط، بهذا التعبير، الشكوى إلى الله، فهؤلاء العقلانيون الذين يُعلمون العقل والهوى، الواقع أنَّه ليس عقلاً بل هو هوى في مقابل الهدى، يردون به إرث النبي صلى الله عليه وسلم.

[ومتى ما قدرتم أن تجامعوا أهل العلم في مجالسهم، أو تنتحلوا شيئاً من العلم في آباد الدهر إلا منافقةً واستتاراً، حتى تتقلدوا اليوم من تفسير كتاب الله ما كان يتوقى أوضح منه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ لقد عدوتم طوركم، وأنزلتم أنفسكم المنزلة التي بعَّدكم الله منها، ثم المسلمون.

ولو لم يوجد فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا عن أصحابه خبر ولا أثر لم تكونوا مؤتمنين على كتاب الله وتفسيره أن يُلتفت إلى شيء من أقاويلكم، أو يُعتمد على شيء من تفسيركم كتاب الله، لما ظهر للأئمة من إلحادكم، فكيف إذا هم خالفوكم؟].

وهذا يدل على أنَّ من مسالك السلف الشدة على المخالف بغير حق وبدون أثارة من علم، لأنَّ من الناس من يستعمل لغة رخوة مع بعض المخالفين الذين لا دليل لهم، ولا أثارة عندهم، ولا شبهة لهم، ولا مسوِّغ لخلافهم، وينبغي للإنسان أن لا يحشر الناس في خندق واحد، فإنَّهم يختلفون، من الناس من يكون عنده شبهة سائغة، فيكلمه بما يليق به، ومن الناس من لا يكون عنده إلا الصفاقة والبجاحة، والتعدي على المعلوم من الدين بالضرورة، فهؤلاء يجب أن يُخاطبوا بما يليق بهم من الشدة والتغليظ، والله تعالى قد أمر نبيه صلى

الله عليه وسلم بأن يغلظ على المنافقين، فإنَّه لا ينفع معهم إلا هكذا، ليتبيَّن الحق من الباطل، وهذا موجود عند السلف، ولهذا وجدنا أبا عبيد القاسم بن سلام رحمه الله في كتاب الإيمان معالمه وسننه واستكماله، فرَّق في اللغة والخطاب بين المرجئة الغلاة وبين مرجئة الفقهاء، وقال لما تكلم عن مرجئة الفقهاء: إنَّ هذا أمر يُغلط في مثله. حتى قال: وقال إخواننا. وكلمة نحو هذا، أما المرجئة الغلاة فقد أغلظ عليهم القول، فهكذا ينبغي لطالب العلم أن يميز بين المراتب والمقامات المختلفة.

[قال أبو سعيد رحمه الله: ومما يردُّ هذا ويبطله قوله تعالى: ((هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ))، [الأنعام:١٥٨]، فهذا مما يحقق دعوانا ويبطل دعواكم التي تخرصتموها عدواً بغير علم في إتيان الله تعالى ومجيئه يوم القيامة والملك صفاً صفاً.

فإن أبيتم إلا لزوماً لتفسيركم هذا، ومخالفةً لما احتججنا به من كتاب الله وآثار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنَّه ليس لكم من الرسوخ في العلم والمعرفة بالكتاب والسنة ما يُعتمد على تفسيركم لو قد أصبتم الحق، فكيف إذا أنتم أخطأتموه.

ولكن بيننا وبينكم حجة واضحة يعقلها من شاء الله من النساء والولدان، ألستم تعلمون أنا قد أتيناكم بهذه الروايات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعن أصحابه والتابعين، منصوصةً صحيحةً عنهم، أنَّ الله تبارك وتعالى يترل كلَّ ليلة إلى سماء الدنيا، وقد علمتم يقيناً أنا لم نخترع هذه الروايات، ولم نفتعلها، بل رويناها عن الأئمة الهادية الذين نقلوا أصول الدين وفروعه إلى الأنام، وكانت مستفيضةً في أيديهم، يتنافسون فيها، ويتزينون بروايتها، ويحتجون بها على من خالفها، قد علمتم ذلك ورويتموها كما رويناها إن شاء الله، فائتوا ببعضها، أنه لا يترل منصوصاً كما روينا عنهم الترول منصوصاً، حتى يكون بعض ما تأتون به ضداً لبعض ما أتيناكم به، وإلا لم يدفع إجماع الأمة وما ثبت عنهم في الترول منصوصاً بلا ضد منصوص من قولهم، أو من قول نظرائهم، ولِمَ يدفع شيء بلا شيء، لأنَّ أقاويلهم ورواياتهم شيء لازم وأصل منيع، وأقاويلكم ريح ليست بشيء، ولا يلزم أحداً منها شيء إلا أن تأتوا فيها بأثر ثابت مستفيض في الأمة كاستفاضة ما روينا عنهم، ولن تأتوا به أبداً، هذا واضح بيِّن يعقله كثير من ضعفاء الرجال والنساء، وتعقلونه أنتم إن شاء الله، فإنَّه ليس لكم من الغفلة كل ما لا تعلمون أنَّ هذه الحجج آخذة بحلوقكم، غير أنَّكم تقصدون قصد شيء لا ينقاد إلا بدفع هذه الحجج والآثار كلها، تزعمون أنَّ إلهكم الذي كنتم تعبدون في كلِّ مكان، واقع في كلِّ شيء، لا حدَّ له ولا منتهى عندكم، ولا يخلو منه مكان بزعمكم].

بعد أن احتج عليهم بالآثار وأحرجهم بعدم وجود آثار عندهم يقابلون الآثار التي يرويها السلف، قال: (تزعمون أنَّ إلهكم الذي كنتم تعبدون في كلِّ مكان)، هذا زعمهم الباطل. والعياذ بالله، كما تقدم وصفه، (واقع على كلِّ شيء، لا حدَّ له)، التعبير بالحد لم يرد به كتاب ولا سنة، ولهذا الدارمي رحمه الله يثبت الحد، ولكن المراد بالحد هاهنا المعنى، ولهذا يقال عن الحد أنَّه من الألفاظ المجملة التي لم ترد في الكتاب والسنة، لا بنفي ولا إثبات، والواجب في مثل هذه الأمثال التوقف في اللفظ والاستفصال عن المعنى، فإذا قيل: هل يوصف الله بالحد، يقال: لا يجوز إثبات الحد لله لا نفياً ولا إثباتاً، لأنَّ الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم لم يثبتا الحد ولم ينفياه، لكن يُستفصل ممن أطلق الحد: ما تريد من وراء ذلك؟ فإن قال: أنَّه يقصد بالحد أنَّ الله سبحانه وتعالى له ذات متميزة عن الأشياء، بائنة عن الخلق، منفصلة عنه، هذا مراده بالحد، وليست مضمحلة متناهية في الكون، فنقول: هذا معنى صحيح، وهذا المعنى نقره، وإن لم يصح أن يُعبَّر عنه بالحد، وإن كان يقصد بنفي الحد أنَّ الله تعالى مضمحل في الكون، غير متناهٍ، فإنَّ هذا معنى باطل، الله تعالى ليس كما وصف، يعني: يجعله مثلاً كالنور الذي يسري في كلِّ مكان، وغير ذلك، فيقال: هذا معنى باطل، بل الله تعالى له ذات لا تشبه الذوات، بائن من خلقه، منفصل عنهم، ليس فيه اختلاط مع أحد من خلقه، فهذا هو التفصيل في مسألة الحد.

[ثم قلتم: إنَّما يوصف بالنزول من هو في مكان دون مكان، فأما من هو في كلِّ مكان فكيف ينزل إلى مكان؟

قلنا: هذه صفة خلاف صفة رب العالمين، ولا نعرف بهذه الصفة شيئاً إلا هذا الهواء الداخل في كلِّ مكان، النازل على كلِّ شيء، فإن لم يكن ذلك إلهكم الذي تعبدون، فقد غلبكم عن عبادة الله رأساً، وصرتم في عبادة ما تعبدون أسوأ منزلةً من عبادة الأوثان، وعبادة الشمس والقمر، لأنَّ كلَّ صنف منهم عبد شيئاً هو عند الخلق شيء، وعبدتم أنتم شيئاً هو عند الخلق لا شيء، لأنَّ الكلمة قد اتفقت من الخلق كلهم أنَّ الشيء لا يكون إلا بحدٍّ وصفة، وأن لا شيء ليس له حدٌّ ولا صفة، فلذلك قلتم: لا حدَّ له، وقد أكذبكم الله تعالى، فسمى نفسه: أكبر الأشياء، وأعظم الأشياء، وخلاق الأشياء، قال تعالى: ((قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ))[الأنعام:١٩]].

لعل الواقع يحسن أن نقف عند هذا الحد، لأنه قد بقي على نهاية الفصل شيء كثير، ويحتاج إلى بعض البسط.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.